اليرموك: كارثة أكثر من مخيم

غسان زقطان*

بيت في اليرموك

صديق سوري من الساحل هو الذي دلني على الشقة الصغيرة في الطبقة الثانية من مبنى في أحد تفرعات شارع فلسطين في مخيم اليرموك. وكان البيت المكون من طبقتين قد بُني على مساحة صغيرة جداً لا تتجاوز السبعين متراً، ويقع في نهاية الزقاق.

سعة المخيلة وشدة الحاجة كانتا وراء ذلك التصرف الاستثنائي الذي أنتج مثل ذلك "المعمار".

للوهلة الأولى بدا البيت بعيداً ومتداعياً وفيه كثير من التصنع، لكن قوته كانت تكمن في مدخله المستقل وفي الإطلالة الخلفية المفاجئة على كرم زيتون، الأمر الذي سمح بتجاوز ضيق المساحة، وبغرابة التصرف في توزيع الغرفتين. غير أن المدخل كان مشمساً ومضاء بشكل باهر وغير مقصود، وتحديداً النافذة العريضة التي تطل على الكرم.

كان الصديق السوري الذي بقي صامتاً في أثناء مرورنا في الزقاق، فخوراً بلقيّته وهو يشير إلى الخضرة التي تتنفس خارج النافذة العريضة التي تحتل مساحة المدخل، والتي اتضح أنها شرفة تم إلحاقها بالغرفتين.

في اليوم التالي المقرر لانتقالي إلى البيت تداخل كل شيء في ذاكرتي ولم أعثر عليه، فوقفت في الشارع الرئيسي للمخيم مع أكياس خضار وخبز، بينما تشابهت، بما يشبه اتفاقاً صامتاً، الأزقة المتفرعة، وكذلك البيوت والأولاد والبنات واللعب.

الفرن على زاوية الزقاق بقي عالقا في ذاكرتي، وعندما سألت صاحب الفرن عن المنزل الذي انتقل إليه سكان جدد وصلوا مساء أمس، أرسل ابنه محمود ليدلني.

في الليل سيصل جميل حتمل من مساكن برزة، وسميح شقير من منزله في المخيم، وجمال أفغاني من شرقي المخيم أيضاً، وفتاة متخفية من قرى طرطوس تتجول في اليرموك باسم حركيّ، وسيصل آخرون، لا أعرف معظمهم، سيدخلون تلك المساحة

* شاعر فلسطيني.

الصغيرة بألفة، وسأصطدم ببعضهم في المطبخ وهم يضعون ما استطاعوا تهريبه من مطابخ أمهاتهم في قراهم البعيدة قبل التجائهم إلى المخيم بعيداً عن عيون رجال الأمن.

بدت أريكة القش طويلة بشكل غير اعتيادي في تلك المساحة، كذلك اختفت الكتب المرتبة على ألواح من الخشب لتحميها من الرطوبة حيث جلس بعض الزوار.

في تلك المساحة التي يصعب تخيلها كان تتلامس أكتاف، لفتية في الغالب، سوريين عرب وفلسطينيين وأكراد وشركسي واحد وعراقي يخطط للهجرة إلى سويسرا، لكن الآن يصعب أن أتذكر طوائفهم. لم يكن ذلك مهماً أو مطروحاً، فتداخل اللهجات وتمازجها حجب تمييز زوار ذلك البيت، ومنحهم حرية خاصة وإحساساً بالطمأنينة.

في ذاك البيت طرح جميل حتمل فكرة إنشاء دار نشر شعبية تقدم كتاباً حديثاً بسعر (يكون) في متناول الجميع، بحيث يتعدى مجانية المنشور ونخبوية الكتاب المطبوع، وهذا ما حدث. تسلّم إدارة الدار التي أُطلق عليها اسم "آفاق"، جميل وصديق فلسطيني يسكن في أول المخيم، بينما كان يوسف عبدلكي المنفيّ في باريس المشرف الفني.

عن تلك الدار صدر كتابي "رايات"، وصدر لغالب هلسا روايته "ثلاثة وجوه لبغداد". وفي البيت أيضاً ناقشنا طويلاً معرض جمال أفغاني الذي كان يسكن في بيت شبه مستقل على أطراف اليرموك، وهذا المعرض هو معرضه الغرافيكي "مدن ميتة" الذي سيحصل على ذهبية بينالي الإسكندرية فيما بعد.

وفي البيت أيضاً أصغينا إلى بعض تمارين سميح شقير في عمله الثاني.

لكل مخيم هويته وملامحه وطرائقه في العيش، لكن مخيم اليرموك كان يتمتع بما هو أعمق من اقتراح موقت لسكن اللاجئين الفلسطينيين وعيشهم. فكرة "الغيتو" التي رافقت معظم المخيمات الفلسطينية، والتي رافقتهم حتى في مهاجرهم، لم تكن موجودة هنا.

كان في وسعنا المقارنة ومعايشة الفرق. كنت قادماً من مخيم الكرامة شرقي نهر الأردن، والذي كان يشبه جزيرة معزولة في فضاء بدوي، حيث البيوت المبنية بالطين المجفف وأسقف القصب، وبرية الأفاعي والملاريا، واستصلاح الأرض الملحية، والمجتمع المديني الذي تحول إلى الفلاحة.

الأفغاني كان قادماً من مخيم بَلاطة المحاذي لمدينة نابلس في الضفة الغربية، والذي حافظ على هويته كتكوين اجتماعي خاص بعيداً عن المدينة على الرغم من التصاقه بها.

وهذا الأمر ينبطق على مخيمات الوحدات والحسين وإربد وعين الحلوة والأمعري... إلى آخر القائمة.

كان مخيم اليرموك أقرب إلى اقتراح أوسع كثيراً من ذلك، وأعمق من تعريف حزام الفقر الذي يتكىء على خاصرة دمشق.

كان يتصرف كملاذ مفتوح لشرائح الظل والمهمشين من السوريين الذين تدفقوا من حوران وقرى الشمال الشرقي: أولئك الذين لم تمنحهم دمشق مكاناً للعيش، إلى جانب منفيين عراقيين ولاجئين من الجولان السوري.

في اليرموك تراكمت فوضى الهجرات كأول محطة يمكن الاتكاء عليها قبل الدخول إلى المدينة، أو التفكير في هجرات أبعد، أو كمنطقة استقرار دائم. وهذه الحركة الدائمة سمحت بتشكيل مظلة أمان للمعارضين السياسيين السوريين، ومن اليسار تحديداً.

ثمة سماحة خاصة تحولت إلى سمة خاصة بهذا المجال السكني، وهي سماحة منحت الجميع حقوقاً متساوية لا مجال للجدال بشأنها.

وكان البيت يشبه خلية مطاردين في منطقة آمنة.■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

سيرة جابي برامكي وتجربته في جامعة بير زيت

(١٩٢٩ ـ ٢٠١٢)

عبد الرحيم الشيخ

٣٧٥ صفحة ١٢ دولاراً